برنارد شو وروايتاه

(١) المجد الحربي

هل الشجاعة الحربية فضيلة او هي رذيلة ؟ وذلك الضابط او العسكري الذي تلمع في صدرو الياشين هل نعده في عداد الرجال الذين نفتخر بهم او في عداد الطغام الذين نرجو زوالهم من الارض

لا ينتهي الانسان من قراءة رواية المستر شو « الأشقان والسلاح » Arms and Man حتى تُجلى امامهُ حقيقة جديدة عن اوهام الناس في الحروب والوطنية اذ يرى كذب الشعراء في الامجاد الحربية وبطلان الاسباب التي تحشد من اجلها الجنود وتراق في سبيلها الدماء

كيف يقال ان في الحرب مجداً وهي مبنية على خداع الصدر اي على انتهاز فرصة ضعفه للهجوم عليه . انا في معاملاتنا العادية نلوم الخادع الماكر الذي يعيش بخداع الناس وغشهم — نسترذل عملهُ في معاملاتنا العادية ولكنا نجدها في الحياة الحربية

يقول المستر شو في مقدمته لهذه الرواية : « انا ننظر الى وظيفة العسكري كأحط وظيفة لننزل اليها شهامة الرجل ويحق لنا ذلك اذا ما هي حقيقة هذه الوظيفة ؟ هي ان يعتمد الانسان على قوته الجسدية . هي ان يكرهُ اعداءهُ حتى يقتلهم . هي ان لا يقتلهم وهم مستسلمون حتى يردوا وحشيتهُ بمثلها بل ينتهز فرصة يكونون فيها نياماً او في حالة لا تمكنهم من الدفاع عن نفوسهم . هذه هي صفوة الفضائل الحربية التي يتغنى بها الشعراء »

ولقد فضل المومسة التي تبيع جسمها وتضحي طهارتها لتنال لقمة تسد بها رمقها على القائد الذي نال شهرتهُ ببيع اجسام الالوف بعد ان نشر الخراب طولاً وعرضاً الى ان قال . هل نحن محقون في تجهيل من وظيفتهُ لا تزيد على وظيفة مكروب الطاعون او الكوليرا التي تبتدئ بالقتل وتنتهي بالقتل ؟ أليست هذه وظيفة كل حربي من القائد الى الجندي

وصف احد كتاب الاميركان المستر شو بقولهِ « انا نرى الاشياء بعيوننا العادية اما هو فكأنهُ يراها بمكرسكوب فيطّلع على دقائق الاشياء التي تخفى عن ابصارنا البسيطة » . ويظهر لك صدق هذا القول اذا قرأت رواية من رواياته التمثيلية التي يحلل فيها عواطفنا الكاذبة كالحب والمجد والشرف التي تعودنا ان نراها موصوفة بانها من الاخلاق السامية — هذه العواطف التي تعودنا احترامها يريها لك كأنها بنيان من تراب اساسهُ الخرافات اذا وضعتهُ

تحت اشعة العقل انهار الى الارض . وما هذا الجد الحربي الاّ توحش ورثاءُ من آبائنا ايام كانوا في دور الحيوانية ؟ ما هو حبك لوطنك وتفضيلك على بقية الاوطان الاّ قصراً في الفكر تستحق العتاب عليهِ لا الشكر

ومن الغريب ان المستر شو يرى الفوضى ديناً في اخلاقنا الاجتماعية وهو سوشيالي في مبادئهِ المعاشية ! والفوضوية ضد السوشيالية على خط مستقيم كما لا يخفى فغرض السوشيالية ان تقيد حريتنا التجارية وتوقف المزاحمة الاقتصادية وهذا النظام مطلوب مفيد ظهرت بعض فوائدهِ التي جُربت في الممالك الاوربية فيستغرب من المستر شو ان يعتقد صحة هذا النظام المعاشي مع رغبتهِ في فوضى نظامنا الاجتماعي فهو لا يرى فرقاً بين المومسة والمتزوجة ولا يرى ان من العقل ان نحمي الوطن ضد العدو او ان نقدس الشرف الاصطلاحي او ان نحب عائلاتنا لانهُ يجب علينا ان نحب الجميع بلا تفضيل ونمزق كل القيود التي تربط الزوج بزوجتهِ والاب بابنهِ والانسان بوطنهِ

(٢) الثورة الاصلاحية Revolutionist's Handbook

في « كتابهِ الثوروي » الذي اضافهُ الى احدى رواياتهِ ترى آراءهُ وما يطلبهُ من الاصلاح في المجتمع الانساني . ففي الفصول الاولى بيّن كل اخلاقنا في المدنية واوضح ان الفرق بينها وبين الهمجية معدوم او قليل ثم اقترح العلاج في الفصل الاخير من هذا الكتاب — علاجاً يؤدي الى تقدم الانسانية وترقيها

ونعني بتقدم الانسانية افضلية الانسان الحالي على الانسان الماضي عقلاً وجسماً . فقد قال المستر شو اننا اذا قارنا انفسنا بآبائنا لم نرَ فرقاً محسوساً في ترقينا عليهم . تصوَّر مثلاً حالة المصريين القدماء في عهد رعمسيس الثاني وقارنها بحالة المصريين الآن وبين العصرين ٣٥٠٠ سنة . فهل المصريون الآن ارقى من اسلافهم عقلاً او اقوى منهم جسماً قد نقول مثلاً اننا نسافر الآن بواسطة البخار الذي كانوا يجهلونهُ وان وسائط النقل عندهم كانت لا تزيد على الحمير او الخيول او نحوها واننا نحن نركب القواطر والمركبات والترام وغيرها ونستنتج من هذا دليلاً على تقدمنا عليهم . ولكنك اذا بحثت واعملت نظرك في لب هذه الحقيقة بدلاً من سطحها وجدت ان التقدم موهوم فان الفلاح الذي يتربع اليوم في الدرجة الثالثة من قطراتنا ليس اذكى عقلاً ولا اقوى جسماً من اخيهِ او ابيهِ الذي عاش في مصر في عهد رعمسيس الثاني . فهو لا يعرف ماهية هذه الآلة الثالثة التي تجر القطر

واذا عرف فمعرفة لا يمدح عليها او لا تفضله على المصري القديم الا كما يفضل هو علينا بمعرفته محيط الموتى الذي عرفه وجهلناه . وبعبارة أخرى ان معرفة امور كثيرة ليست دليلاً على التقدم كما ان جهل امور كثيرة ليس دليلاً على التأخر فكم من امور دينية وصناعية عرفها المصريون وجهلناها نحن بلا خسارة علينا

ونحن وان كنا اختلفنا عنهم في الفروع فاننا وهم سواء في الاصول فبيوتنا كبيوتهم وطعامنا كطعامهم والفرع الوحيد من اعمالنا الذي نتقدمنا فيه تقدماً محسوساً هو الآلات الحربية — أي اننا نتقدمنا في ما يقطع اوصال الانسانية بدلاً من ان يلئمها

والعلاج الذي يشير به المستر شو لنهاية لتقدمنا هو اصلاح الزواج . قال فقد ظهر في تاريخ الانسان كثيرون من النوابغ الذين فاقوا بعقولهم ابناء عصرهم كافلاطون وغاليليو ونيوتن — رجال افادوا العالم باعمالهم التي ملأوا بها حياتهم . ولكن بموت هؤلاء النوابغ ماتت قرائحهم وخسرنا خسارة كبرى

فالثورة الاصلاحية التي يطلبها هي تخليد هؤلاء النوابغ او بعبارة اوضح تخليد قرائحهم حتى تفيد الانسان وتؤول دائماً الى ترقينا الترقي الصحيح . والسبب في عدم وصول ابناء افلاطون الى مستوى عقل ابيهم وبعبارة أخرى السبب في عدم وراثتهم قريحة والدهم هو جهل الامة التي عاش فيها افلاطون اذ لم تستعمل قرنة بطريقة تؤدي الى وراثة نسلها لهذه القوة العقلية فانه بديهي اننا نرث كثيراً من والدينا جسماً وعقلاً فاذا نظمنا التزاوج — لا الزواج — بين الافراد تنظيماً علمياً يؤول الى تخليد القوى عقلاً او جسماً وزوال الضعيف كان ذلك خطوة في سبيل التقدم الحقيقي واذا لم يؤول الزواج الى تحسين الشعب وتقدمه فلا فائدة منه والغاؤه افضل من بقائه فالغرض الاسمى من الزواج يجب ان يكون تخليد الشعب وتحسين عناصره ولكن هذا الغرض ضائع الآن بقوانين الزواج فاذا عدلنا الزواج بشكل نمنع به المريض من التزوج بالمريضة والابله بالبلهاء وقبيح الشكل بالقبيحة . ثم زوجنا القوي بالقوية والرياضي او الفلكي بالرياضية او الفلكية — فبهاتين الطريقتين يمكننا تحسين الشعب ولكن قد يعترض القارئ الآن انه لا يمكن اجبار اثنين على الزواج اذا لم يتحابا فالجواب انه اذا لم يكن الغرض من الزواج ارضاء الشهوة الحيوانية بل خدمة الامة بتقديم ابناء اصحاء اذا وجب ان يسقط كل اعتبار آخر

تتوقف اليوم معيشة المرأة على عمل الرجل فاننا نمنعها من العمل ونكلف الرجل القيام

بنفقاتها فالنتيجة من هذا النظام ان نصف الامة عاطل لا يعمل وقوته الجسمية والعقلية في حمول يرثه نسل الزوجين اذ ان الطفل ليس ابن ابيه فقط بل ابن ابيه وامه . وثانياً ان المرأة باعتمادها على الرجل تتكل على نفسها وحي ضيعتها بانتقاء من تفضله وتقبل من تراه اقدر من غيره مالاً ليمكنها ان تخلص الاصلاح المطلوب بما يأتي

اولاً جعل المرأة مستقلة عن الرجل معاشياً حتى يسقط الاعتبار المالي في اختيارها لزوجها والطبيعة افضل حاكم فاذا اوحت اليها فهي تتبع وحيها في بقاء الانسب

ثانياً ان نمنع زواج العاطلين ونقوي تزاوج اللائقين . فلا ينبغي ان نزوج المجرم او المريض ويجب ان نقوي الزواج بين اللائقين كالقوي مع القوية جسماً او عقلاً

ثالثاً يجب ان نضع امام اعيننا قصداً سامياً لاصلاح الشعوب ونتخذ الطرق الطبيعية لتحسينها فانه اذا كانت الطبيعة على توالي الزمن قد قدرت على تكويننا من الحيوانات الدنية — وبعبارة اخرى اذا كنا نعرف ان الانسان الحالي نشأ من الخلية البسيطة — اذا كنا نعرف هذه القوانين وماهياتها التي كانت العامل القوي في اخراجنا من دور الحيوانية الى دور الانسانية فلماذا لا نستعملها في اخراج او انشاء انسان ارقى من الانسان الحالي عقلاً وجسماً

وليس برنارد شو اول من فكر في هذا الموضوع فقد سبقه نيتشه الفيلسوف الالماني وانه هذه الفكرة مرتين انما يجب ان نضحي كل عزيز لدينا في الوصول الى تحيمها

الفكرة عالية والمقصد نبيل ولكني ارى انه لا سبيل الى الغاء الزواج حتى تلغى الغرائز الحيوانية التي فينا وهو ما لا نصل اليه الا بعد قرون

سلامه موسى

[المقتطف] لبرنارد شو اقوال ثقيلة حذفناها من هذه المقالة لانها لا تناسب آداب الاجتماع الآن لا في هذه البلاد ولا في البلدان الاوربية فالمجاهرة بها من باب وضع الشيء في غير محله فهو يبيح مثلاً التزاوج من غير قيد وهذا امر تأباه آداب الاجتماع في عصرنا في اكثر البلدان الراقية لان الادلة متوفرة على ضرره فاذا تغيرت احوال الاجتماع وتوفرت الادلة على نفعه حق للذين تتوفر لديهم تلك الادلة ان يغيروا نظامهم ويعملوا بما يصلح لهم